

مواجهة المجتمع بتحدى الغلو وعلاجه عند الشيخ الطاهر بن عاشور من خلال تفسيره "التحرير والتنوير"

Confronting society with the challenge of extremism and its treatment
according to Sheikh Al-Taher bin Ashour through his interpretation of
"Al-Tahrir Wa-Al-Tanwir"

Mr. Abdul Wahid

PHD Scholar (International Islamic University, Islamabad) & Lecturer, Islamic Studies,
National University of Modern Languages, (NUML) Rawalpindi

Dr. Adnan Shahzad

Lecturer, Islamic Studies, National University of Modern Languages, (NUML)
Rawalpindi

Dr. Farhad Ullah

Associate Professor, Islamic Study Depptt, HITEC University, Taxala
Email: farhadullah@hitecuni.edu.pk ORCID:

ABSTRACT:

Since the beginning of human history, society has faced many challenges, and the war between the people of falsehood and the people of truth has continued all the time, and its forms kept changing. This battle was fought many times by military personnel and sustained heavy losses. For this reason, the people of falsehood changed this method and instead of military war, they moved to the intellectual and moral field, and they tried to introduce absurdity and extremism in the society, as a result of which religious extremism intensified in the society, which is a big challenge for the Muslim society. This research explains the society's confrontation with the challenge of religious extremism and will try to offer its remedy through the interpretation of Shaykh al-Tahir bin Ashoor's commentary on "Al-Tahrir Wa Al-Tanwir". The research consists of an introduction, two chapters and conclusion.

Keywords: Challenge, Confronting, exaggeration, Society, Causes, Ibn-e-Ashoor

الحمد لله الذي نصب للحق دليلاً، والصلاة والسلام على النبي الأمين، أعلم الناس بمراد الله تعالى، وعلى صحابته الكرام رضوان الله عليهم وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فهناك تحديات كثيرة منذ فجر التاريخ التي تواجهها المجتمع، وتكاد لا تنتهي، فالحرب من الباطل على الداعي الحق ومن

الكافر على الداعي إلى الإيمان دائمة مستمرة لا تتوقف، ولكن هذه التحديات متنوعة، فإن الغرب الكافر قد جربت الحروب العسكرية مع الدعاة والمسلمين فما أفلحت، لأن أغلب الحروب العسكرية تنتهي بخسارة كبيرة، لذلك هم بدأوا في تعديل هذه الفكرة وانتقلوا من الحروب العسكرية إلى الحروب المعنوية الفكرية، ومن هذه التحديات للمجتمع الغلو في الدين، فقد انتشرت هذه الظاهرة بقوة في أيامنا هذه نظرا إلى الأحداث التي تمر بها العالم الإسلامي، سوف يركز الباحث في البحث ببيان مواجهة المجتمع بتحدي الغلو وعلاجه عند الشيخ الطاهر بن عاشور من خلال تفسيره "التحرير والتنوير"، سيكون تقديم البحث في صورة تمهيد ومبحثين وخاتمة بمشيئة الله جلّ وعلا.

الكلمات المفتاحية: تحدي، مواجهة، الغلو، المجتمع، أسباب، ابن عاشور.

أهمية الموضوع:

يعتبر موضوع تحدي الغلو في الدين جدير بالذكر، فهذا من التحديات العظمى أمام المجتمع، وذلك فإن الإسلام يدعو إلى الوسطية والاعتدال وعدم الغلو والتعصب في الدين، وأما الغلو في الدين فهو الطريق إلى التطرف الفكري والاعتقادي، وإلى الفهم الخاطئ للدين قد يدفع الإنسان إلى محاولة فرض ما يعتقد ويؤمن به بالقوة، وهذا ما أثبتته الواقع الحالي.

وقد نعى الإسلام عن الغلو في الدين، وحذر المسلمين منه حتى لا ينحرفوا، فجعل الله هذه الأمة وسطا، وديننا كذلك، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١)، ومثل هذا التوجيه جاء صريحا لأهل الكتاب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٢) فالغلو خلاف الاعتدال، فإذا كان الاعتدال والتوازن مطلوب في الأمور كلها، فإن الغلو يعني الشقة والتضييق على النفس باتباع طريق واحد بعيدا عن الاعتدال، ووسطية الإسلام توازن بين الأحكام، فلا غلو وتشدد، ولا تفلت ولا تسبب، فلا إفراط ولا تفريط في الإسلام.

ودراسة هذا الموضوع من خلال الآيات القرآنية ومن خلال تفسير "التحرير والتنوير" للإمام ابن عاشور تجعل الموضوع أكثر قيمة وقدرًا حيث إن الإمام ابن عاشور رحمه الله جمع في تفسيره الأصالة والمعاصرة معا، حيث قال: "وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه، وما أجليه من المسائل العلمية، مما لا يذكره المفسرون"^(٣)، وقال: "ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير"^(٤). وفي نهاية تمهيده أشار إلى اسم التفسير ومختصره، فقال: "وسميته تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، واختصرت هذا الاسم باسم "التحرير والتنوير" من التفسير"^(٥).

فالإمام رحمه الله بالفعل قد حرّر المعنى السديد ونور العقل الجديد المعاصر من ناحية بيان شناعة الغلو في الدين وبيان وسطية الإسلام توازن بين الأحكام، فلا إفراط ولا تفريط في الإسلام .

خطة البحث:

يتضمن البحث تمهيدا وفيه ترجمة موجزة للإمام ابن عاشور رحمه الله والتعريف بتفسيره "التحرير والتنوير" ومبشرين، البحث الأول يشتمل على بيان مفهوم التحدي والغلو في الدين ورأي الإمام ابن عاشور عنه، والبحث الثاني يشتمل على النماذج التطبيقية من خلال تفسير "التحرير والتنوير"، وأثر هذا التحدي بالغلو في الدين على القضايا الحالية في المجتمع.

التمهيد

نبذة مختصرة عن العلامة الطاهر بن عاشور - رحمه الله - وتفسيره "التحرير والتنوير".

اسمه ونسبه ومولده:

قد قام الخلف عن السلف في حفظ تاريخهم بالترجمة لهم خدمة لتراثهم وإحياء لذكراهم وإن مثل الشيخ ابن عاشور رحمه الله لجدير بذكر ترجمته والاستفادة من منهج حياته في تعلمه وتعليمه. وإني لأستعين الله فيما أذكر: اسمه "محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، وأمه فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب بن محمد بن محمد بوعتور، وأصل عائلته بلاد الأندلس، ثم انتقلت إلى سلا ببلاد المغرب، ثم انتقل إلى تونس، ولد الشيخ ابن عاشور بقصر جده لأمه بالمرسى" في جمادى الأول ١٢٩٦هـ = ١٨٧٩م، "وهو من عائلة عريقة في العلم، وطبقة اجتماعية رفيعة، فجده لأبيه كان قاضي الحاضرة التونسية، وجده لأمه العلامة الوزير الشيخ محمد العزيز"^(٦).

حياته العلمية:

نشأ الشيخ رحمه الله في كنف جده لأمه الشيخ الوزير محمد العزيز، وبعناية والده الشيخ محمد بن عاشور، فاهتما به اهتماما دينيا وتربويا^(٧).

قد ابتدأ بحفظ القرآن الكريم عندما كان عمره ست سنوات في بيته وفي الكتاب، وتلقى العلوم العربية والدين على كبار من علماء عصره، ودرس عليهم عديدا من كتب النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام والفقه والفرائض والأصول والحديث والسيرة التحق بجامعة الزيتونة عند بلوغه الرابعة عشرة من عمره، فلقى عناية علمية من أساتذته، وكانت فترة دراسته بالزيتونة سبع أعوام، درس فيها كتباً مهمة التي كونت شخصية العالم العلمية^(٨).

مكائنه العلمية:

قال عنه شيخ الأزهر العلامة المحقق قرينه في الدراسة محمد الخضر حسين^(٩): "وللأستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان، ويضيف غزارة العلم، وقوة النظر، صفاء الذوق، وسعة الاطلاع في آداب العربية" وبالإجمال ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه، وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم^(١٠). وقال فيه "الدكتور العلمي عبد الرحمن العثيمين":^(١١) "من أفاضل الرجال في عصرها، أدركته ولم يقدر لي رؤيته - وهو بلا شك- من محاسن العصر، ونوادير الرجال، رئيس المفتين في تونس، وشيخ جامعة الزيتونة بها، خلف مكتبة حافلة بنوادير المخطوطات والمطبوعات، وألف آثارا جليلة"^(١٢).

آثاره العلمية:

تنوعت من مصنفات الطاهر بن عاشور، فشملت ضروبا من الثقافة الإسلامية، وهذا من أجل التنشئة العلمية التي لمسناها في تكوينه العلمي وقد أشرت إلى ذلك في حياته العلمية، فمن مؤلفاته:

١- "أصول الإنشاء والخطابة". ٢- "أليس الصبح بقريب". ٣- "التحرير والتنوير". ٤- "تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة". ٥- "المتراشف في اللغة". ٦- "قصة المولد النبوي الشريف". ٧- "كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ". ٨- "مقاصد الشريعة الإسلامية". ٩- "موجز البلاغة". ١٠- "النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح". ١١- "النظام الاجتماعي في الإسلام". ١٢- "الوقف وأثره في الإسلام".^(١٣)

وفاته:

انتقل إلى رحمة الله وحسن جواره صاحب الفضيلة مابين البحث والتدريس، والعلم والتأليف، فتوفي رحمه الله يوم الأحد ١٣ رجب سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.^(١٤)

تفسير التحرير والتنوير:

يعتبر تفسير التحرير والتنوير من أعمال علمية إسلامية، لا على مستوى تونس والشمال الإفريقي فحسب، بل وعلى مستوى العالمين العربي والإسلامي، فقد انتهت إلى الشيخ الرئاسة العلمية في شمال إفريقيا ممثلة في الجامعة العريقة الزيتونية^(١٥).

منهج التفسير:

وقد أشار الشيخ إلى موضوعات تفسيره ومنهجيته التي اعتمدها في تفسيره كل ما يتعلق بالآيات والسور، فقال: "وقد اهتمت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخرالدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى نظم الدرر في تناسب الآي والسور، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع... واهتممت

بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق، مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة، وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعداده، فيأني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه هم النحارير"، "وأیضا قد وضّح عن السبب لاهتمامه بتحديد أغراض السورة في طليعة ما يهتم به قبل تفسير آياتها قائلا: "أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقا على المفسر، ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها، لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته، ومعاني جملة، كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله" (١٦).

وقد أثنى تفسيره بأنه: "ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القمطير" (١٧)، "ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير" (١٨).

المبحث الأول: مفهوم التحدي والغلو في الدين ورأي الإمام ابن عاشور عنه

وفيه أمور، "الأمر الأول": "مفهوم التحدي لغة واصطلاحاً"

(تحدي) "الشّيء حداه وفُلاًناً طلب مباراته في أمر" (١٩)

حدي بالمكان حدي: "لزمه فلم يبرحه"، وتحدي الرجل: تعمدته. وتحده، باراه ونازعه. وهي الحديا، وأنا حدياك في هذا الأمر، أي ابرز لي فيه"، (٢٠)

حدي بالمكان، كرضي، حدى: لزمه فلم يبرح، وحدي، كسمي: اسم، وأحدى: تعمد شيئاً، كتحدها، والحديا، بالضم وفتح الدال: "المنازعة، والمباراة، وقد تحدى"، و من الناس: واحداهم، وأنا حدياك: ابرز لي وحدك، ولا أفعله حدا الدهر: أبداً. (٢١)

("والحديا، بالضم وفتح الدال") "وتشديد الياء، ولو قال كالثريا كان أخصر": ("المنازعة والمباراة")، (وقد تحدى): "إذا باراه ونازعه الغلبة"، .. (و) { الحديا (من الناس: واحداهم) ، عن كراع ، (و) في التهذيب: تقول: (أنا { حدياك) بهذا الأمر، أي (ابرز لي وحدك) .. (ولا أفعله { حدا الدهر): أي (أبداً)، أي ما حدا الليل النهار، ومما يستدرك عليه: يقال: هو حدياهم أي! يتحداهم ويتعمدهم. (٢٢).

"الأمر الثاني": "مفهوم الغلو لغة واصطلاحاً"

"غلو": (غلا) "السعر يغلو" (غلاء)، بالمد، (فهو) غال (وغلي)، كغني؛ (وفي المصباح: غلا السعر يغلو، والاسم (الغلاء بالفتح والمد، (وأغلاه الله) ضد أرخصه، أي جعله غالياً، ويقال: بعته بالغالي والغلي، كغني: أي الغلاء، وفي الصحاح: غالى باللحم: أي اشتراه بثمن غال؛ وقال: نغالى اللحم للأضياف نياً ونرخصها إذا نضج القدور فحذف الباء وهو يريد بها، وغلا في الأمر غلوا، كسمو؛ من

باب قعد؛ (جاوز حده)، وفي الصحاح: جاوز فيه الحد، وفي المصباح: غلا في الدين غلوا تشدد وتصلب حتى جاوز الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾. (٢٣) وقال ابن الأثير: "الغلو في الدين البحث عن بواطن الأشياء والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها". وقال الراغب: "أصل الغلو تجاوز الحد، يقال ذلك إذا كان في السعر غلاء، وإذا كان في القدر والمنزلة، غلو"، وفي السهم {غلو، وأفعالها جميعا غلا} يغلو. (٢٤)

(غلو): ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾. (٢٥)

غلا بالجارية والغلام عَظُمَ: سَمِنًا، وَغَلَا النَبْتُ وَتَغَالَى وَاعْلَوَى: "ارتفع وعظم والتفتت، وأعلى الكرم": التفتت ورقه وكثرت نواحيه وطال، المعنى المحوري زيادة تضخمية أو طولية مع حدة ما: كما تعظم الجارية والغلام بالسمن، وشحم السمن حادًا، "وكما يطول النبت ويعظم بقوة النمو في أثنائه وهي قوة حادة الأثر كالجارية والغلام والنبت في ما سبق ومن الارتفاع": "أعلى النبت: حقف من ورقه ليرتفع ويؤود. وغلا بالسهم: "رفع يديه به يريد أن يبلغ به أقصى الغاية" (زيادة على القدر المعتاد). والغلو: قُدْرُ رُفِيَّةٍ بسهم (تحدث بتلك الكيفية). "وكذلك الدابة تغلو في سيرها وتغلي": تُسرع (السرعة زيادة امتدادية كالطولية). "والغلاء: ضد الرخص من الزيادة". "ومن الزيادة المعنوية": "غلوان الشباب بالضم، وغلواؤه كنفساء: سرعته وشيرته. غلا في الأمر غلوا (قعد): جاوز الحد فيه. "والغلو في الدين": "التشدد فيه ومجاوزة الحد بالتنطع في البحث عن بواطن الأشياء والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها": ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾. (٢٦) ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾. (٢٧) (٢٨).

الغلو: الارتفاع في الشيء ومجاوزة الحد فيه ومنه قوله جل وعز: "لا تغلوا في دينكم"، "أي لا تجاوزوا المقدار. ومنه الغلو بالسهم، وهو أن يرمى به حيث ما بلغ غلا يغلو غلوا وغلوة وغلوا، وجمع الغلوة غلاء وكل ما ارتفع فقد تغالى، ومنه اشتقاق الشيء العالي لأنه قد ارتفع عن حدود الثمن. وغلوى: اسم فرس معروفة من خيل العرب، والغلو من هذا اشتقاقها". (٢٩)

الأمر الثالث : رأي الإمام ابن عاشور عن مفهوم الغلو في الدين

ذكر الشيخ ابن عاشور مفهومه في تفسيره بقوله: والغلو: "تجاوز الحد المؤلف، مشتق من غلوة السهم، وهي منتهى اندفاعه، واستعير للزيادة على المطلوب من المعقول، أو المشروع في المعتقدات، والإدراكات، والأفعال، والغلو في الدين أن يظهر المتدين ما يفوت الحد الذي حدد له الدين، ونهاهم عن الغلو". (٣٠) فخرج إنسان من الحدود التي حددها الشرع الإسلامي يسمى الغلو في الدين، وكما ذكر ابن عاشور في مفهوم الغلو بقوله: "والغلو مصدر غلا في الأمر: إذا جاوز حده المعروف. فالغلو الزيادة في عمل على المتعارف منه بحسب العقل أو العادة أو الشرع" (٣١).

واعتبر الشيخ الغلو والتعصب في التفسير القرآني من الرأي المذموم والقبيح في مقدمة تفسيره بقوله: "أن يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نخلة فيتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجر شهادة القرآن لتقرير رأيه ويمنعه عن فهم القرآن حق فهمه ما قيد عقله من التعصب، عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه حتى إن لمع له بارق حق وبدا له معنى يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقدك؟". (٣٢)

المبحث الثاني: النماذج من تفسير "التحرير والتنوير" بشأن الغلو في الدين وعلاجه عند الشيخ الطاهر بن عاشور

"المثال الأول" ، "قال الله جل وعلا":

﴿ولا يأمرکم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أياً أمرکم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ (٣٣)
قال الشيخ ابن عاشور تحت هذه الآية الكريمة: ولعل المقصود من قوله: "ولا يأمرکم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً": "أنهم لما بالغوا في تعظيم بعض الأنبياء والملائكة، فصوروا صور النبيين، مثل يحيى ومريم، وعبدوهما، وصوروا صور الملائكة، واقترا التفسير مع الغلو في تعظيم الصورة والتعبد عندها ضرب من الوثنية". (٣٤)

الحاصل من كلام الشيخ ابن عاشور أن الغلو في تعظيم الأنبياء والملائكة صار سبب العبادة لهم، وبالتالي صوروا صور الملائكة وبدأوا في عبادة لهم وأشركوا بالله بعد أن كانوا موحدين مسلمين، فهذا الغلو في التعظيم مما حذره الله جل وعلا عباده منه .

المثال الثاني ، "قال الله جل وعلا":

﴿لا تغلوا في دينکم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ (٣٥)

قال الشيخ ابن عاشور تحت هذه الآية الكريمة: "وابتدئت موعظتهم بالنهي عن الغلو لأن النصارى غلوا في تعظيم عيسى - فادعوا له بنوة الله، وجعلوه ثالث الآلهة". والغلو: "تجاوز الحد المألوف، مشتق من غلوة السهم، وهي منتهى اندفاعه، واستعير للزيادة على المطلوب من المعقول، أو المشروع في المعتقدات، والإدراكات، والأفعال، والغلو في الدين أن يظهر المتدين ما يفوت الحد الذي حدد له الدين، ونهاهم عن الغلو لأنه أصل لكثير من ضلالهم وتكذيبهم للرسل الصادقين، وغلوا أهل الكتاب تجاوزهم الحد الذي طلبه دينهم منهم: فاليهود طولوا باتباع التوراة ومحبة رسولهم، فتجاوزوه إلى بغضة الرسل كعيسى ومحمد عليهما السلام، والنصارى طولوا باتباع المسيح فتجاوزوا فيه الحد إلى دعوى إلهيته أو كونه ابن الله، مع الكفر بمحمد ﷺ". (٣٦)

الحاصل من كلام الشيخ ابن عاشور أنه حذر الله النصارى من الغلو في الدين، والإفراط بالتعظيم بالقول أو الفعل أو الاعتقاد، ورفع المخلوق عن منزلته التي أنزله الله جل وعلا ، وفي جانب آخر تجاوز اليهود في محبة رسولهم حتى تجاوزوه إلى بغضة الرسل كعيسى ومحمد- عليهما السلام-، "بينما النصارى طولبوا باتباع المسيح فتجاوزوا فيه الحد إلى دعوى إلهيته أو كونه ابن الله، والعياذ بالله تعالى".

وكما ذكر ابن عاشور عند قوله جل وعلا: "إنما المسيح عيسى ابن مريم" (٣٧)

"جملة مبينة للحد الذي كان الغلو عنده، فإنه مجمل ومبينة للمراد من قول الحق، ولكونها تنزل من التي قبلها منزلة البيان فصلت عنها. وقد أفادت الجملة قصر المسيح على صفات ثلاث: صفة الرسالة، وصفة كونه كلمة الله أُلقيت إلى مريم، وصفة كونه روحا من عند الله، فالقصر قصر موصوف على صفة. والقصد من هذا القصر إبطال ما أحدثه غلوهم في هذه الصفات غلوا أخرجها عن كنهها فإن هذه الصفات ثابتة لعيسى، وهم مثبتون لها فلا ينكر عليهم وصف عيسى بها، لكنهم تجاوزوا الحد المحدود لها فجعلوا الرسالة النبوة، وجعلوا الكلمة اتحاد حقيقة الإلهية بعيسى في بطن مريم فجعلوا عيسى ابنا لله ومريم صاحبة لله سبحانه، وجعلوا معنى الروح على ما به تكونت حقيقة المسيح في بطن مريم من نفس الإلهية". (٣٨)

الحاصل من كلام الشيخ ابن عاشور أن كل "إنما" تفيد قصر شخصية سيدنا مسيح عليه السلام في صفات ثلاثة من : "صفة الرسالة وكونه كلمة الله تعالى وكونه روحا من عنده جل وعلا ، والغرض من هذا القصر إبطال غلوهم في هذه الصفات".

وكما ذكر الشيخ ابن عاشور عند قوله جل وعلا :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٣٩)

"الخطاب لعموم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتقدم تفسير نظيره في آخر سورة النساء، والغلو مصدر غلا في الأمر إذا جاوز حده المعروف. فالغلو الزيادة في عمل على المتعارف منه بحسب العقل أو العادة أو الشرع".

وقوله: "غير الحق": "منصور على النيابة عن مفعول مطلق لفعل تغلوا أي غلوا غير الحق، وغير الحق هو الباطل، وعدل عن أن يقال باطلا إلى غير الحق لما في وصف غير الحق من تشنيع الموصوف، والمراد أنه مخالف للحق المعروف فهو مذموم لأن الحق محمود فغيره مذموم، وأريد أنه مخالف للصواب احترازا عن الغلو الذي لا ضير فيه، مثل المبالغة في الثناء على العمل الصالح من غير تجاوز لما يقتضيه الشرع". وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق" (٤٠). "فمن

غلو اليهود تجاوزهم الحد في التمسك بشرع التوراة بعد رسالة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومن غلو النصارى دعوى إلهية عيسى وتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، ومن الغلو الذي ليس باطلا ما هو مثل الزيادة في الوضوء على ثلاث غسلات فإنه مكروه".^(٤١)

الحاصل من كلام الشيخ ابن عاشور "أن كل زيادة في الأمر المتعارف عقلا وعادة وشرعا يكون الغلو، والغلو خلاف الوسطية، فإذا كانت الوسطية تعني الاعتدال والتوازن في الأمور كلها، وإن الغلو يعني الشقة والتضييق على النفس باتباع طريق واحد بعيدا عن الوسط، ووسطية الإسلام توازن بين الأحكام، فلا غلو وتشدد، ولا تفلت ولا تسبب، فلا إفراط ولا تفريط في الإسلام"، ويستفاد من قوله تعالى "غير الحق" أنه لاجرج في المبالغة على العمل الصالح من غير تجاوز وفق ما يقتضيه الشرع، "وبهذا قد استنبط الشيخ ابن عاشور قضية فقهية وهي أن الزيادة على ثلاث غسلات في الوضوء لا يكون حراما لعدم اندراج هذه الزيادة في الباطل بل يكون مكروها تنزيها".

المثال الثالث ، "قال الله جل وعلا" :

﴿قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾^(٤٢)

قال الشيخ ابن عاشور تحت هذه الآية الكريمة: "أصلي الكمال الإسلامي، فقوله: قالوا ربنا الله مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتمام به، ومعرفة الخير لأجل العمل به، فالكمال علم يقيني وعمل صالح، فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني".

وأشار بقوله: "استقاموا" إلى أساس الأعمال الصالحة "وهو الاستقامة على الحق، أي أن يكون وسطا غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط" قال تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾^(٤٣) وقال: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾^(٤٤) "على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة، فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، ويستمر كذلك فاصلا بين الجبري والقدري، وبين الرجاء والقنوط، وفي الأعمال بين الغلو والتفريط".^(٤٥)

اتخذ الشيخ ابن عاشور الوسطية أساسا للأعمال الصالحة واعتبر كمال الاعتقاد الاستقامة على الحق، "وأن التوازن هو قانون الحياة الطيبة كما أرادها الله تعالى إذ الغلو في ناحية يكون على حساب الجوانب الأخرى مما يخل أو يفسد أمرها حتى لو كان الغلو في الفضائل فإنه يجعل منها شذوذا أو مرضا، وأن المسلم الحقيقي هو المسلم المتوازن المعتدل، سواء في مجال إشباع الغرائز أو الحاجات البشرية، أو في مجال العبادات أو المعاملات، أو حتى في مجال العواطف أو الأحاسيس، وكافة صور الحياة أو المشاعر أو

السلوك. وقد عرفنا واقع الحياة وقسوة التجارب أن كل التزام بمنهج الإسلام في التوازن والاعتدال فيه نجاح وراحة وسعادة الإنسان، وكل خروج عنه فيه فشل وخسارة ونقمة".

المثال الرابع ، "قال الله جلّ وعلا" :

﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودوا﴾^(٢٩)

قال الشيخ ابن عاشور تحت هذه الآية الكريمة: "والقسط العدل وهو هنا العدل بمعناه الأعم، أي الفعل الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط في الأشياء، وهو الفضيلة من كل فعل، فالله أمر بالفضائل وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض وأنه حسن مستقيم"، نظير قوله: ﴿وكان بين ذلك قواما﴾^(٤٦) "فالتوحيد عدل بين الإشارك والتعطيل، والقصاص من القاتل عدل بين إطلال الدماء وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل لأجل جنائية واحد من القبيلة لم يقدر عليه. وأمر الله بالإحسان، وهو عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائما للصلاح عاجلا وآجلا، أي سالما من عواقب الفساد، وقد نقل عن ابن عباس أن القسط قول لا إله إلا هو، وإنما يعني بذلك أن التوحيد من أعظم القسط، وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أن الله أمرهم بها لأن شيئا من تلك الفواحش ليسبقسط، وكذلك اللباس فإن التعري تفريط، والمبالغة في وضع اللباس إفراط، والعدل هو اللباس الذي يستر العورة ويدفع أذى القر أو الحر، وكذلك الطعام فتحریم بعضه غلو، والاسترسال فيه نهماة، والوسط هو الاعتدال، فقوله: أمر ربي بالقسط كلام جامع لإبطال كل ما يزعمون أن الله أمرهم به مما ليس من قبيل القسط".^(٤٧)

الحاصل من كلام الشيخ الطاهر بن عاشور "أن الوسط والتوازن والاعتدال ظاهرة كونية وحقيقة شرعية دون شك، وأن دين الإسلام دين وسط معتدل في كل أحكامه وتشريعاته: العقدية، والعبادية، والخلقية، والمعاملات، والعلاقات حتى في اللباس الذي يكون مناسبا للجو، وهكذا في الطعام الاعتدال مطلوب شرعي، فالغلو في الدين يفضي إلى تشددات منقّرة، وتعتّات لا يرضاها الدين ولا يقبلها، بل يتنافى معها، فالدين يسر سمح، وهو دين الفطرة، والغلو في الدين ينافي سماحته ويسره، وينافي ملاءمته للعقول السليمة والفطرة الإنسانية، واعتبر الشيخ ابن عاشور الأمر الرباني بالقسط كلاما جامعاً لإبطال كل ما يخرج من قبيل القسط، وجعل القسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائما للصلاح عاجلا وآجلا، أي سالما من عواقب الفساد"، و كلمة "القسط": تدور بين الإفراط والتفريط في الأشياء كلها.

المثال الخامس :

والذى يستحق ذكره هنا أن الشيخ ابن عاشور رحمه الله يؤكد على الاحترام والاتحاد بين المسلمين رغم الأفكار المتنوعة بينهم، وعن الابتعاد في الغلو والشدة وضمن هذا السياق يقول رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم البينات بغيا بينهم﴾^(٤٨).

"والآية تقتضي تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف في الدين أي في أصول الإسلام، فالخلاف الحاصل بين علماء الإسلام ليس اختلافا في أصول الشريعة، فإنها إجماعية، وقد أجمعوا على أنهم يريدون تحقيقها، ولذلك اتفقت أصولهم في البحث عن مراد الله تعالى وعن سنة رسوله للاستدلال عن مقصد الشارع وتصرفاته، واتفقوا في أكثر الفروع، وإنما اختلفوا في تعيين كيفية الوصول إلى مقصد الشارع، وقد استبرءوا للدين فأعلنوا جميعاً أن الله تعالى حكماً في كل مسألة، وأنه حكم واحد، وأنه كلف المجتهدين بإصابته وأن المصيب واحد، وأن مخطئه أقل ثواباً من مصيبيه، وأن التقصير في طلبه إثم، فالاختلاف الحاصل بين علمائنا اختلاف جليل المقدار موسع للأنظار، أما لو جاء أتباعهم فانتصروا لأرائهم مع تحقق ضعف المدرك أو خطئه لقصد ترويج المذهب وإسقاط رأي الغير فذلك يشبه الاختلاف الذي شنع الله تعالى وحذرنا منه فكونوا من مثله على حذر".^(٤٩)

الحاصل من كلام الشيخ ابن عاشور "أن اختلاف العلماء في آراء لا تتسبب محل النزاع والجدل والمعرفة، فإن الكل يقصد الوصول إلى مقصد الشارع، وهذا أمر جليل القدر والمنزلة وموسع للأنظار، وأما الاختلاف لإسقاط رأي الغير وإبطاله فهو مما شنع الله جل وعلا، ولا بد من أن نكون جذرين منه لإفشاء فكرة الاحترام والمودة والسلام بين الإنسانية وبناء مجتمع حضاري متقدم، ففي كل هذه التعليمات القرآنية وبتمسكها سبب علاج الغلو في الدين.

خاتمة البحث

فهذا ما تيسر في هذا البحث المتواضع، ومن خلال دراسة موضوع تحدي الغلو في الدين وعلاجه في تفسير "التحرير والتنوير" لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي رحمه الله ظهرت نتائج، وإني أوجز إليها في النقاط الآتية :

- ١ اعتبر الشيخ ابن عاشور الوسطية والتوازن والاعتدال ظاهرة كونية وحقيقة شرعية دون شك.
- ٢ اعتبر الشيخ الاعتدال ميزة للمسلم الحق، المبعد عن الغلو، و متمسك بين الإفراط والتفريط.
- ٣ جعل الشيخ عدم الغلو في الدين من العقول السليمة والغرائز البشرية.
- ٤ جعل الغلو في الدين منافي سماحة الإسلام ويسره، ومنافي ملاءمته للفطرة الإنسانية.
- ٥ اعتبر اختلاف علماء الأمة من باب تعيين كيفية الوصول إلى مقصد الشارع، غير سبب المعركة والجدال في الأمة".

نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا من أهل الاعتدال والاستقامة والوسطية وأن يبعدنا عن طريق الغلاة وأن يهدي كل من ضل من المسلمين والإنسانية إلى الدين الإسلامي.

(References)

- ^١ سورة البقرة: ١٤٣.
- ^٢ سورة المائدة: ٧٧.
- ^٣ محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ط: الدار التونسية للنشر تونس، ص: ٧، ج: ١.
- ^٤ المرجع السابق: ج ١، ص ٨.
- ^٥ المرجع السابق: ج ١، ص ٩.
- ^٦ محمد الطاهر ابن عاشور، مقدمة كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، ضبطه: د. طه بن علي بوسريح التونسي، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٧، وانظر: خير الدين الزركلي بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشرة - أيار/مايو ٢٠٠٢م. ج ٦، ص ١٧٤.
- وللاطلاع على حياة ابن عاشور انظر: د. قاسم الغالي، أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٦. و د. حسن عبد الجليل عبد الرحيم، فتح ابن عاشور في الاحتجاج بالقراءات القرآنية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، م ٢١، العدد الأول، ٢٠٠٥م، ص ٣٦٨.
- ^٧ مقدمة كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ: ص ٧.
- ^٨ فتح ابن عاشور في الاحتجاج بالقراءات القرآنية: ص ٣٦٨.
- ^٩ (١٢٩٣-١٣٧٧ = ١٨٧٦-١٩٥٨ م) محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني التونسي، عالم إسلامي، أديب وباحث، يقول الشعر، من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة، ومن تولوا مشيخة الأزهر، ولد في نفطة (من بلاد تونس) وتخرج بجامع الزيتونة ودرس فيه، وأنشأ مجلة (السعادة العظمى) سنة ١٣٢١ هـ، وولي قضاء بنزرت (١٣٢٣) واستعفى وعاد إلى التدريس بالزيتونة سنة (١٣٢٤) وعمل في لجنة تنظيم المكتبتين العبدلية والزيتونة، كان من أعضاء (لجنة التاريخ التونسي) وانتقل إلى المشرق فاستقر في دمشق مدرسا في المدرسة السلطانية قبل الحرب العامة الأولى، وانتدبته الحكومة العثمانية في خلال تلك الحرب للسفر إلى برلين، مع الشيخ عبد العزيز جاويش وآخرين، فنشر بعد عودته إلى دمشق سلسلة من أخبار رحلاته، في جريدة (المقتبس) الدمشقية، ولما احتل الفرنسيون سورية انتقل إلى القاهرة (١٩٢٢)، وعمل مصححا في دار الكتب خمس سنوات، وتقدم لامتحان (العالمية) الأزهرية فنال شهادتها، ودرس في الأزهر، وأنشأ جمعية الهداية الإسلامية وتولى رئاستها وتحرير مجلتها، وترأس تحرير مجلة (نور الإسلام) الأزهرية، ومجلة (لواء الإسلام) ثم كان من (هياة كبار العلماء) وعين شيخا للأزهر (أواخر ١٣٧١ واستقال (١٣٧٣) وتوفي بالقاهرة، ودفن بوصية منه في تربة صديقة أحمد تيمور (باشا)، وكان هادئ الطبع وقورا، خص قسما كبيرا من وقته لمقاومة الاستعمار، وانتخب رئيسا لجمعية الدفاع عن شمال إفريقيا في مصر، وله تآليف، منها: (حياة اللغة العربية - ط) و (بلاغة القرآن - ط) و (تونس وجامع الزيتونة - ط) وغيرها.

- ١٠ - خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٦، ص١١٣-١١٤.
- ١١ - مقدمة كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ: ص١٠.
- ١٢ - محمد بن صالح العثيمين (١٣٤٧ - ١٤٢١ هـ، ١٩٢٨ - ٢٠٠١ م). "محمد بن صالح بن محمد عثيمين المقبل الوهبي التميمي، عالم وفقه سعودي، وأستاذ في كلية الشريعة بفرع جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية في منطقة القصيم، وعضو هيئة كبار العلماء، ولد في عنيزة بمنطقة القصيم التي كانت مساجدها مكاناً لكثير من الحلقات العلمية الشرعية والنقاشات الفكرية. حفظ القرآن الكريم في صغره، ثم اتجه إلى طلب العلوم الشرعية والعربية على أيدي كثير من العلماء المتخصصين، حاز جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م". نقلاً عن: الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>
- ١٣ - مقدمة كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ: ص١٠.
- ١٤ - أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير: ص٢٧-٢٩. وانظر: مقدمة كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ: ص١٠-١٢.
- ١٥ - فتح ابن عاشور في الاحتجاج بالقراءات القرآنية: ص٣٦٨، وانظر: مقدمة كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ: ص١٢، وانظر: خير الدين الزركلي، الأعلام: ج٤، ص١٧.
- ١٦ - محمد صلاح المستاوي، القيمة العلمية لتفسير الإمام العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مجلة البلاغ، العدد ٧٤٠، ١٩٨٤، ص٤٨.
- ١٧ - التحرير والتنوير: ج١، ص٨.
- ١٨ - القمطر الجمل القوي السريع، وقيل: الجمل الضخم القوي، وكل شيء جمعه فقد قمطرته، والقمطر، "والقمطرة ما تصان فيه الكتب". لسان العرب: (قمطر).
- ١٩ - التحرير والتنوير: ج١، ص٨.
- ٢٠ - إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار، المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة، ج١، ص١٦٢.
- ٢١ - علي بن إسماعيل بن سيده المرسى أبو الحسن (ت: ٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١١، ج٣، ص: ٤٢٧.
- ٢٢ - مجد الدين الفيروزآبادي محمد بن يعقوب أبو طاهر (المتوفى: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقشوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ١، ج١، ص: ١٢٧٣.
- ٢٣ - محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية لبنان، ج: ٣٧، ص: ٤١٠.
- ٢٤ - سورة المائدة: ٧٧.
- ٢٥ - تاج العروس من جواهر القاموس، ج: ٣٩، ص: ١٧٨.
- ٢٦ - سورة المائدة: ٧٧.

- ^{٢٦} سورة النساء: ١٧١.
- ^{٢٧} سورة المائدة: ٧٧.
- ^{٢٨} د. محمد حسن حسن جيل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصل بيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها): الناشر: مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م، عدد الأجزاء: ٤، ج: ٣، ص: ١٦٠٠.
- ^{٢٩} محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أبو بكر (المتوفى: ٣٢١هـ)، جبهة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٣، ج: ٢، ص: ٩٦١.
- ^{٣٠} التحرير والتنوير، ج: ٣، ص: ٥١.
- ^{٣١} التحرير والتنوير، ج: ٦، ص: ٢٩٠.
- ^{٣٢} التحرير والتنوير، ج: ١، ص: ٢٩.
- ^{٣٣} سورة آل عمران: ٨٠.
- ^{٣٤} التحرير والتنوير، ج: ٣، ص: ٢٩٦.
- ^{٣٥} سورة النساء: ١٧١.
- ^{٣٦} التحرير والتنوير، ج: ٣، ص: ٥١.
- ^{٣٧} سورة النساء: ١٧١.
- ^{٣٨} التحرير والتنوير، ج: ٣، ص: ٥١.
- ^{٣٩} سورة المائدة: ٧٧.
- ^{٤٠} سورة النساء: ١٧١.
- ^{٤١} التحرير والتنوير، ج: ٦، ص: ٢٩٠.
- ^{٤٢} سورة الأحقاف: ١٣.
- ^{٤٣} سورة الفاتحة: ٦.
- ^{٤٤} سورة البقرة: ١٤٣.
- ^{٤٥} التحرير والتنوير، ج: ٢٤، ص: ٢٨٤.
- ^{٤٦} سورة الفرقان: ٦٧.
- ^{٤٧} التحرير والتنوير، ج: ٨، ص: ٨٧.
- ^{٤٨} سورة البقرة: ٢١٣.
- ^{٤٩} التحرير والتنوير، ج: ٢، ص: ٣١١.